مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسة الأديان السابقة للإسلام بحث طويل ومعقد وشائك. فليس هو مجرد إشارات أو نصوص موجزة مقتضبة تطل على الأديان من بعيد. إنما هو دخول في علم التاريخ وعلم الآثار والجغرافيا، وعلم مقارنة الأديان وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم.

وإذا كنا بصدد دراسة منطقة حوض المتوسط والجانب الشرقي منه تحديداً. فإننا نقف أمام أديان واعتقادات يصل عمرها إلى آلاف السنين قبل أن تظهر العقائد السماوية الكتابية، والأديان الكبرى.

وما يهمنا في هذا الإطار دراسة ديانة بني إسرائيل والديانة النصرانية والإسلام. فهي التي تشكل الأديان الكبرى في المنطقة.

ولما كانت المنطقة تؤثِّر وتتأثَّر بما جاورها من شعوب كان من الأفضل للبحث العلمي في الأديان أن نطلع على عقائد بلاد فارس كون دياناتها ظلت قائمة حتى الفتح الإسلامي فهي من القرب إلى عصرنا ما يدفعنا للتعرف على تشريعاتها وامتداداتها ومآلها وما عليها مقارنة بالأديان والعقائد الأخرى.

وبداية فإن سؤالاً يَطْرَحُ نفسه يقول كيف ندرس عقيدة بني إسرئيل؟. لماذا نركز عليها في المقام الأول قبل النصرانية أو غيرها من العقائد؟.

وحتى لا يفوتنا الحديث عن علاقة بني إسرائيل المزورة بأرض فلسطين. كان لابد لنا من فهم مسألة تدوين التوراة وربط تدوينها الديني بالسياسي خاصة لما آلت إليه مجريات الأحداث التاريخية منذ السنين الأولى لوجود هذه الفئة وحتى الآن.

فالمتهودون اليوم يرون أن العقيدة اليهودية بدأت منذ النبي إبراهيم عليه السلام. وظلت رسالتُها مستمرة منذ زمنه وحتى آخر نبي من أنبيائهم. وقد اعتمد مدوِّنو التوراة

هذا المنهج ثم جاء حاخاماتهم ليرسخوا مقولة الصلة المتواصلة بين المتهودين الجدد وبين هؤلاء الأنبياء بدءاً بإبراهيم عليه السلام.

وعلى هذا الأساس ربطوا أنفسهم بهؤلاء الأنبياء وعلاقتهم النبوية بالرسالات.

وقد ظلت هذه التلفيقات مشاعة بين الناس حتى أُنزل القرآن الكريم على سيد المرسلين محمد ﷺ، ففضح أكاذيبهم وقطع الشك باليقين. فأنقذ الأنبياء جميعهم من براثن التلفيق اليهودي. وأعاد لهؤلاء الأنبياء صفاتهم وسماتهم وقيمهم الرسالية بعد أن شوهها كتبة التوراة وشوهوا أصحابها.

وإذا كانوا ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم عليه السلام زوراً وبهتاناً فقد بيَّن القرآن الكريم أن هذا النبي ما كان يهودياً ولا نصرانياً ولا مشركاً. إنما كان حنيفاً مسلماً وأن أولى الناس به النبي محمد ﷺ والذين آمنوا معه.

وبداية فإن الجواب الذي يستحق أن يطرح رداً على السؤال القائل كيف ندرس عقيدة بني إسرائيل. ولماذا نركز عليها أكثر من غيرها؟ يكمن في إعادة تركيب الصيغة التاريخية لهذه العقيدة وتسلسلها الزمني والابتعاد كلياً عما وقع فيه الباحثون والكتاب والدارسون من إسرائيليات ومن تأثيرات توراتية كثيرة.

أما لماذا نركز على عقيدتهم فلأن الصراع القدري بين الخير والشر يتجسد في صراع المسلمين مع المتهودين والصهاينة منذ بعثة الإسلام وحتى اليوم.

يبدأ تاريخ بني إسرائيل حسب النص التوراتي منذ هجرة إبراهيم عليه السلام وحتى قبل المسيح عليه السلام. ولم يضم تاريخهم سيرة النبي زكريا والنبي يحيى والنبي عيسى عليهم السلام.

ويعتبرون أنفسهم حسب التسلسل أبْناءَ إبراهيم فإسحق فيعقوب فيوسف فالأسباط ولم يقتصروا على ذلك بل جعلوا من إبراهيم يهودياً حتى يكون نسله حسب التسلسل من اليهود. ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ (آل عمران: 67).

وتصحيحاً لمسار هذا التاريخ ورداً على الكذب والافتراء اللذين استخدمهما مدوِّنو التوراة في كتاباتهم نعود لنجمل ما قاله القرآن الكريم ولما توافق مع كتب التاريخ والمدونات بعيداً عن تأثير الإسرائيليات وما أُشيع من التوراة وتواريخها.

تشير المصادر التاريخية استناداً إلى دراسة الأديان القديمة أن الكلدانيين الذين سكنوا حوض الفرات وتمددوا فيه عبدوا الكواكب والشمس. وتشير الدراسات أن البابليين عبدوا المريخ والقمر والشمس، وهذه هي البيئة التي نشأ فيها إبراهيم عليه السلام.

ولما كان إبراهيم عليه السلام قد اصطفاه الله ليكون نبياً وأباً للأنبياء فقد حصنه الله منذ كان فتى من أن يتجه لعبادة الأصنام. وقد كان أبوه ممن تبع عبادة تلك الأصنام والكواكب فحاول إبراهيم أن يثنيه عن عبادتها لكنَّهُ رفض. وفي أحد أعياد قومه ذهب ليلاً فحطم الأصنام. وقد حامت حوله الشكوك فاستقدموه ليسألوه فراح يسخر منهم ومما يعبدون. فأقروا بسوء معتقدهم لكنهم ظلوا على ضلالهم فأمروا بحرقه. لكن الله نجاه من النار.

ثم رحل واصطحب معه ابن أخيه لوطاً عليه السلام وترك بلاده إلى بلاد انتقاها الله لتكون موطن نجاة له ولمن معه.

بقول تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: 71)، وكانت هذه الأرض أرض فلسطين حيث استقر فيها بعضاً من الوقت ينشر دعوة التوحيد.

وكانت زوجته عاقراً وقد بلغ من العمر عتياً دون أن يكون له ولد. وكانت زوجته تدرك أنها لن تنجب له. فقدمت له جاريتها المصرية الأصْل. فتزوجها. فأنجبت له النبي إسماعيل عليه السلام. وراح الولد يكبر حتى أصبح طفلاً مدركاً.

ويمنّ الله على إبراهيم عليه السلام ويبشره بأن زوجته ستنجب له ولداً. وقد لفّ العجب إبراهيم وزوجته لكن إرادة الله قضت أن تحمل زوجته العجوز وتنجب له ولداً أطلق عليه اسم إسحق.

في هذه الأثناء كان النبي لوط يدعو قوم مدن الدائرة في منطقة البحر الميت إلى عبادة الله الواحد والابتعاد عن الفاحشة. ولما رفضوا دعوته وظلّوا على سوء أخلاقهم بعث الله ملائكته إلى إبراهيم عليه السلام يخبرونه بالقضاء الإلهي. ويذهب الملائكة لبيت لوط ينذرونه بأن يرحل لأن الله سيدمر قومه. ويغادر لوط المكان بعد شجار مع قومه الذين ظنوا الملائكة الداخلين إليه بشراً. وأرادوا فعْلَ الفاحشة معهم.

ودمّر الله منطقتهم حيث قلب عاليها سافلها ونجى الله لوطاً ومن آمن معه. وكانت امرأته ممن لحقهم الدمار والحرق.

وأراد الله سبحانه أن تتم دعوة إبراهيم فأخذ ابنه إسماعيل وأمه من فلسطين إلى مكة حيث أصل البيت الحرام وأساسه. وتركهما هناك في وادي مكة القاحل والمفتقد للماء لكن الله سبحانه أراد أمراً عظيماً لم يكن إبراهيم يعرف غيبه. وبينما كانت أم إسماعيل تفتش عن الماء بين الصفا والمروة وتروح وتأتي سبعة أشواط حتى أعياها التعب إذا بملائكة الله تتدخل بأمره فيضرب إسماعيل الرمل برجله فإذا بنبع من الماء الزلال ينفجر. وتهرع أم إسماعيل شاكرة الله على ما أنعم عليها. لقد أحياها الله وابنها بعد أن كادت تشرف على الموت. بل وأحيا الأرض حولها.

وتشاء التقادير أن يأتي بعض العرب الرحالة إلى جوار المكان فيرون الطير تحوّم فعرفوا أن ماءً في المكان. فاقتربوا حتى رأوا معجزة الله في تفجر الماء في هذا المكان القاحل واستقروا في هذا المكان.

وبعد أن شب إسماعيل أوحى الله سبحانه إلى إبراهيم بأن يذهب إلى وادي مكة ويظهر قواعد البيت الحرام.وهناك راح مع ابنه يشيدان بناء البيت العتيق. ويدعوان الله أن يتقبل منهما وأن يبعث من هذه الأمة رسولاً عالمياً يدعو إلى عبادة الله الواحد.

ويتم بناء هذا البيت ويضعان الحجر الأسود في أحد جدرانه. ويصبح من ذلك الوقت مقصداً يقصده الحجاج والعابدون من كافة الأمم والشعوب.

ويعود إبراهيم عليه السلام إلى الأرض المباركة فلسطين. فيزوج ابنه إسحق، ويمتد به العمر ليرى نسل ولديه إسماعيل وإسحق. ويموت في الخليل فيدفنه ولداه وأحفاده بعد أن كانت زوجته قد سبقته إلى لقاء ربها.

وينجب يعقوب إثنى عشر ولداً كان يوسف أحبهم إليه. وقد تنقلت أسرة يعقوب من مكان لآخر مع مواشيهم ولم يكن لهم مستقر في أرض محددة.

ويحسد أولاده أخاهم يوسف لأنه كان أحبهم إليه. فيتآمرون عَلَيْهِ. ويتفقون على إلقائه في بئر. ويعد أن ينفذوا مؤامرتهم يعودون لوالدهم مخادعين كاذبين وتمر قافلة كانت قادمة من الشام إلى مصر فأرادوا أن يشربوا، فساقهم الله إلى البئر الذي ألقي فيه يوسف. وعندما أدلوا دلوهم عرفوا أن غلاماً في داخل البئر فأخرجوه وساقوه معهم إلى مصر.

وكان رئيس القافلة رجلاً ذا مكانة في مصر. ولم يكن له ولد ففرح بيوسف وأراد أن يتبناه، وراح يوسف يشب. حتى وقعت زوجة الرجل في حب يوسف وراودتْهُ عن نفسه فعصمه الله. ثم يوضع في السجن مدة، ويلتقي بمن ألقي القبض عليهم ويدعوهم إلى عبادة الله ثم يستجلبه الملك ليفسر له أحلامه. ثم يصطفيه ليكون أميناً على إنتاج الحبوب والغلال.

وتضيق بإخوَةِ يوسف الحال فيأتون إلى مصر فيعرفهم يوسف وهم لا يعرفونه.

فيرفض إعطاءهم القمح حتى يجلبوا أخاه الصغير فيعودون إلى يعقوب ويقصون عليه ما جرى لهم. ثم يأخذون أخاهم الصغير فيحتجزه يوسف بعد أن يستخدم حيلة وضع المكيال في رحله.

ويقع إخوتُه في حرج كبير فمنهم من لم يعد إلى أبيه ومنهم من عاد ليقص عليه ما جرى، ثم يعاودون الكرة ليجلبوا القمح ويستعطفوا يوسف أن يعيد لهم أخاهم. فيُظهر لهم نفسه ثم يجلب أباه وإخوته إلى مصر معززين مكرّمين.

كان الوقت الذي جرت فيه قصة يوسف هو الوقت الذي تمكن الرعاة الهكسوس من احتلال شمال مصر. أي الوجه البحري وتمركز الفراعنة في الجنوب فأسسوا عاصمة جديدة لهم أطلقوا عليها اسم طيبة.

وتشير كافة المصادر التاريخية إلى أن يوسف كان أميناً على الغلال عند ملك الهكسوس ومن هذه المصادر كتاب العرب واليهود في التاريخ للدكتور أحمد سوسة.

وقد أتى القرآن الكريم في سورة يوسف تحديداً على اسم الملك ولم يأت على ذكر الفرعون وهذا ما يتوافق مع الأحداث التاريخية التي جرت زمن يوسف.

في تلك الأثناء يموت يعقوب بعد أن يوصي أبناءه بعبادة الإله الواحد إله إبراهيم وإسماعيل وإسحق. ولا تشير الدراسات إلى موت يوسف وما جرى لبَنِي يعقوب أثناء ذلك.

وتمضي فترة من الزمن حيث ينقلب الحال ويستطيع الفراعنة استرداد بلادهم في الوجه البحري من مصر. فيرون في بني إسرائيل عدواً لهم لأنهم في نظرهم كانوا يتعاونون مع أعدائهم المستعمرين الهكسوس. فيأخذون بتعذيبهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم وبناتهم حتى يظهر موسى عليه السلام. ويريد الله له أن يكونَ نبياً. فيتربى في بيت فرعون دون أن يعرفوا أصله. ويشب في كنفهم حتى تحدث معه حادثة القتال بين رجل من قومه ورجل

مصري فيحاول أن يفصل بينهما لكن المصري يموت أثناء الشجار فيهرب موسى ثم يلتقي مرة أخرى بالرجل الذي هو من قومه يتشاجر مع رجل آخر فيريد أن يتدخل فيفتن عليه ابن قومه فيهرب من مصر إلى سيناء، ومن هناك يصل إلى مَدْيَنَ. وتحدث معه قصة سقاء الفتاتين وهما ابنتا رجل صالح يقول بعض المفسرين إنه شعيب عليه السلام. وبعد أن يسقي غنم الفتاتين يتعرف على أبيهما ثم يزوجه واحدة منهما.

يأخذ موسى زوجته محاولاً العودة إلى أهله. فتتجلى قدرة الله في نار في قلب شجرة ويخاطبه أن يذهب إلى فرعون كي يدعوه إلى التوحيد وكف الأذى عن بني إسرائيل يذهب موسى إلى فرعون وينضم إليه أخوه هارون فيحاججه لكن فرعون يطغى فتتدخَّلُ يد الله بمعجزات كثيرة وابتلاءات عديدة وأخيراً يهرب موسى وآل إسرائيل من وجه جيش فرعون حتى يدخل سيناء ويغْرِقُ الله فرعون وجنوده.

تبدأ رحلة جديدة لموسى وبني إسرائيل. يدخلون سيناء فيتذكرون ما كانوا يعبدونه في مصر وما كانت عليه آلهة المصريين، فيطلبون من موسى أن يجعل لهم إلهاً مثل بقية الشعوب التي مروا بها فيؤنبهم، ويدخل معهم قلب سيناء. وهناك أراد الله أن يُؤْتي موسى كتاباً يبين لبني إسرائيل تشريعهم وعبادتهم، فيذهب موسى لتلقي رسالة السماء فيمكث أربعين ليلة بعيداً عن قومه. وينزل عليه الله الكتاب في ألواح. ويعود أدراجه إلى بني إسرائيل فيجدهم يعبدون ثوراً صنعه لهم السامري. فيغضب منهم ويلقي الألواح ثم يحرق العجل الذهبي ويذروه مع الريح.

ويأخذ النبي موسى بتعليم بني إسرائيل زمناً طويلاً ويمّن الله عليهم بكثير من النعم لكنهم كانوا يضمرون الكفر في نفوسهم إلا قليلاً كانوا مؤمنين بالله وبرسالة موسى وقبل أن يموت موسى يطلب منهم أن يدخلوا أرضاً مقدسة اختارها الله لهم. فرفضوا وجحدوا وقالوا لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. عندها يدرك موسى أن بني إسرائيل لن يفلحوا ولن يؤمنوا فقال رب افرُقْ بيننا وبين القوم الفاسقين. ويحرم الله تلك الأرض المقدسة عليهم ويقضي عليهم بالضياع والتيه أربعين سنة.

وهنا تنقطع أخبارهم لأنهم في تيه عقيدي وتيه عقلي. وتمضي السنون ولا من خبر عنهم حتى يأتي نبي لهم يطلب منهم الجهاد فيطلبون منه أن ينتقي لهم ملكاً يقودهم فينتقي

لهم طالوت ملكاً فيحتجون لأن طالوت ليس غنياً. وليس من أشراف القوم لكنهم يخضعون أخيراً، وعند المواجهة مع الوثنيين الذين قادهم جالوت هربوا وتراجعوا ولم يبق مع طالوت سوى القلة.

وهنا يظهر داود فجأة وكان فتى. فيمنحه الله القوة فيقتل جالوت بإذن الله ويذيع صيت داود حتى يتزعم على بني إسرائيل على الرغم من أنهم تآمروا عليه وأرادوا قتله مراراً، ثم يبلغ بالنبوة، ويؤتيْهِ الله كتاب الزبور ويملك على بني إسرائيل وغيرهم يحكم بالعدل بين الناس جميعاً. ويمكث هكذا حتى يكبر ابنه سليمان فيحكم من بعده ويعطيه الله الملك والنبوة والحكمة فيملك سنوات طوالاً ويتنقل من مكان لآخر ويراسل الملوك وتصل تجارته وسفنه إلى اليمن ومملكة سبأ.

ولما مات سليمان تاه بنو إسرائيل وأصبحوا معرَّضين بسرعة هائلة للوثنية.

وتنقطع أخبارهم انقطاعاً كلياً حتى يظهر زكريا عليه السلام وابنه يحيى ويظهر المسيح كنبي لبني إسرائيل. لكنهم يتآمرون عليهم جميعاً فيقتل زكريا ثم يحيى ثم يتآمرون على المسيح حتى ينقذه الله منهم ويرفعه إلى السماء.

إلى هذا يمكن أن نرى عن كثب تاريخ هذه الفئة الفاسدة القديم أما بعد الإسلام فكلنا نعرف مواقفهم من الدين الجديد والنبي محمد ﷺ، وقد أشارت الآيات الكريمة إلى صراع المسلمين معهم حتى أذن الله أن تفتح مستوطناتهم في خيبر ويرّحلوا عن أرض الإسلام.

ومع الفتح الإسلامي والتحرير لبلاد العرب تعيش الأمة ألفاً وأربعمائة سنة بخير بعيداً عن تأثيرات اليهود. حتى يأتي التاريخ المعاصر فيتآمر الغرب على المسلمين والعرب فيصنع دولة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين المباركة. فيأسرون المسجد الأقصى ويعيثون في الأرض فساداً.

ويناطحهم الشعب الفلسطيني المسلم فيقوم بثوراته المتعاقبة ثورة بعد ثورة وانتفاضة بعد أخرى حتى يأذن الله بتحقيق وعده بالنصر على هؤلاء الفاسدين المتهودين.